عادت إلى زوجها

بقلم: ر. س. ماني

أعانت الأم طفلها على ارتداء ثيابه.. ولم تتركه حتى اطمأنت إلى هندامه وهيئته. ثم أجلسته فوق مقعد قريب وأمسكت بقدميه الصغيرتين وأدخلتهما في جوربه، وحذائه... وطافت بخيالها صورة والده، فأرسلت آهة حرى جهدت أن تخفيها عن طفلها «موهان»، الذي لم يكن يجاوز سن السادسة.. بينما أخذت تسوي شعره بيد مرتعشة، تمر بالمشط فوق رأسه، في رفق وحنان..

والتفت الطفل نحو أمه، «نالیني»، وشد ذيل ثوبها كعادة الأطفال، لتوليه انتباهها.. وسألها:

– إلى أين سنذهب يا ماما..؟.

وأجابته نالیني قائلة:

– إلى المحكمة يا بني..

– المحكمة؟.. وما هي هذه (المحكمة)؟..

– لن تعرف أمرها بسهولة يا ولدي.. هناك أناس كثيرون.. كل منهم يتشاجر مع الآخر، ويختلف معه.. و«قاضي» المحكمة هو الذي يستمع إلى حجج الطرفين ثم يعاقب المسيء أو المعتدي ويحمي البريء..

وأغمض الطفل عينيه وضم شفتيه، وهي عادة أخذها عن جده عندما يتظاهر الاقتناع أو التأمل، وقال:

– فهمت..

وما لبث أن عاد يسألها:

– وهل بابا سيكون هناك يا أماه..

– نعم..

– وهل سيحضر لي الحلوى واللعب..؟

– لا.. لن يحضر لك شيئاً.. والآن يا موهان لا تثرثر بمثل هذه الأسئلة السخيفة.. لقد كبرت.. ولا ينبغي لك أن تتشبث بالحلوى واللعب..

ولكن الطفل لم يلتفت إلى انتهارها له، وقال في إيمان وإصرار:

– إنني أعلم أنه سيحضرها لي.. لقد اعتاد أن يعطيني الحلوى والبونبون كلما طلبت ذلك منه.. اليس كذلك يا ماما..؟.

ثم استدرك قائلاً وقد غير من لهجته:

– ولكن قولي لي يا ماما.. لماذا لا يأتي إلينا في هذه الأيام..!.

– لأنه تشاجر معي يا حبيبي. ألم أقل لك ذلك في مرات عديدة!

– ولكن أنا لم أتشاجر معه، ولم أغضبه، كان من الممكن على الأقل أن يأتي إليَّ أنا..

ولم تدر نالیني أتضحك لهذه الملاحظة البارعة أم تبكي.. إنه لمن الغباء أن تشرح مثل هذه المسائل الدقيقة لطفل محدود الإدراك ومع ذلك كانت تشعر بأنها في حاجة إلى أن تفعل.. حتى تفرج – على الأقل – عن نفسها.. كانت مضطرة أن تقضي بكربها وخواطرها إلى شخص ما.

– إن بابا لا يأتي إلى هذا المنزل لأنني أنا هنا.. وهو لا يحبني.. لا يريدني.ز فإذا رغب في أن يراك فهو يراك فقط في الخارج.. وعلى فكرة.. إذا طلب أحد إليك أن تكون مع والدك، فهل توافق وتذهب إليه..؟.

– طبعاً.. إنه يعطيني هدايا جميلة..

وارتعدت نالیني لهذه الإجابة المفاجئة.. ولما تمالكت نفسها التفتت إلى وليدها وقالت تحذره:

– لا، يا موهان.. إذا سألك أحد أتحب أن تكون معي أم مع والدك.. فعليك بالطبع أن تقول إنك تحبني جداً وإنك تفضل أن تظل معي فقط.. أفهمت..؟ حذار أن تنسى هذا..!.

ولكنها أدركت خطأها على الفور، عقب هذا التلقين المصنوع.. إن الطفل لن يفهم أو يدرك شيئاً من هذا. وفي الواقع، لم يكن موهان مهيأ للفهم.. وبداكأنه لم يسمع حتكلمات الوصية.. وعوضاً عن هذاكان منصرفاً بكليته إلى شيء فوق رأسه.. إلى صورة والده المعلقة في صدر المكان. حتى نالیني قد انساقت هي الأخرى في نفس الطريق، فرفعت

عينيها ونظرت إلى الصورة.. وجعلت تتأملها وقتاً طويلاً.. ما أشد التشابه بين زوجها وولدها، في الشكل، وفي تقاطيع وجهه.. الملامح القوية المتميزة.. النظرة البعيدة العميقة.. الفم الصغير الدقيق.. البريق الذي يلتمع في العينين عندما ينتقل فجأة من موضوع إلى موضوع، وكأنه كشف عن سر خطير أو اختراع عظيم..!.

عندئذ تنازعها مشاعر الندم وتبكيت الضمير.. لقد أحست أنها ارتكبت خطأ بانفصالها عن «راميش» في لحظة غضب أو طيش عابر.. أن تصورها للذلة التي تنتظرها في ساحة المحكمة، وهي تقف أمام القاضي.. والاضطراب الذي سينتابها عندما تلتقي بـ (راميش) وجها لوجه بعد افتراقهما منذ بضعة عشر شهراً، وتخيلها مشهد انتزاع وليدها موهان منها، إذا ما سارت القضية في صف راميش.. هذه الخواطر والأحاسيسكان وقعها في ذهنها أخطر من أن تتلقاها بسكينة أو هدوء..

لقد وقعت نالیني مراراً عديدة فريسة لمثل هذه الخواطر، وكثيراً مافكرت في لحظات ضعفها فيما لو عادت من جديد إلى راميش – زوجها – وسلمت نفسها له.. أتراه في هذه الحالة يقبلها ثانية..؟ وهل تعود المياه إلى مجاريها ويستأنفان حياة جديدة من غير تفكير في الماضي أو نبش الذكريات لاستخراج هذه السابقة المزرية..؟ أيمكن أن تنسى تلك الكلمات الطائشة القاسية التي تبادلها في جو مشحون بالكهرباء.. في تلك الليلة المشئومة التي شهدها الشيطان ونسق جدول

أعمالها..؟! هذه الكلمات التي حملت بالشتائم والإهانات – أيمكن أن تطوي وتغفل فلا تعود إلى الذاكرة..؟.

إن وجنتيها قد صعد إليهما الدم من الخجل وهي تذكر تلك الليلة التاريخية.. لقد تطور بينهما النزاع حتى اتهمت زوجها بأنه الخائن الأثيم.. هذا الوصف بالذات!.. ورد هو عليها باتهام أشنع. كانت تتهمه وأصبعها في مواجهة عينيه.. وكان يهددها وهو ثورة غضبه بجمع يده.. لو لم يفته أن يترك آثار أظافر، فوق يديها.. وظل اللون الأزرق يصبغ جلها الرقيق مدى أسبوع بطوله.. وإنها لتذكر أن والدها عندما رأى آثار هذه البربرية، أمرها بألا تفكر مرة ثانية في هذا الرجل، راميش.. وأنه سيقاضيه أمام المحاكم.. ولكن راميش كان أسرع منه، إذ بادر إلى إقامة الدعوى، مطالباً بضم ابنه إلى حضانته..

وأحست نالیني بكراهية راميش من كل قلبها عندما تلقت إخطار المحكمة.. ولم تضمر له هذا القدر من الكراهية من قبل، حتى عندما صفعها على خدها، حتى وهي تتهمه ويتهمها بأقبح الصفات، أو يتقاذفان الشتائم والسخائم التي يتبادلها ملايين الرجال والنساء المتزوجين فيما بينهم.. في كل ركن من أركان المعمورة!..

***

وانتشلها الصغير من أفكارها عندما سألها قائلاً في اهتمام:

– ألم تنته المعركة بينكما يا أماه..؟.

وقالت الأم في يأس وندم:

– لا، يا بني..

فقال الطفل متعجباً:

– إنني كلما تشاجرت مع صاحبي الذي يسكن في الشقة المجاورة، لا ألبث أن أصالحه وأصافحه، ونصبح صديقين مرة أخرى في الصباح التالي. إنني أحبه جداً يا ماما..!.

وقالت الأم تعلق على كلامه:

– إنه ولد لطيف..!.

وانتقل الطفل فوراً إلى الموضوع الذي يستهويه دون سائر الموضوعات – الحلوى والبونبون – فقال:

– عندما أقابل أبي... سأطلب منه نصيبي من التوفي والشيكولاتة..

– لا ينبغي أن تفعل شيئاً كهذا يا بني.. إنك ستكون معي.. ووالدك لا يريد أن تتحدث إليه.. وإذا عمدت إلى مخاطبته فقد يغضب منك ويضربك..

والتفت موهان إلى أمه مستغرباً، ولم يزد على ما قاله شيئاً.. ولمح بالقرب منه دميته التي يتلهى بها، فجرى إليها، وشغل بها.. ما اسرع ما ينسى الأطفال..!.

وجاء والد ناليتي، وسألها هل أتمت استعدادها للخروج. وأجابته السيدة بالإيجاب.

– أين موهان..؟

– إنه هناك، في الغرفة المجاورة، يلعب بدميته.. وبهذه المناسبة قل لي يا أبي هل من الضروري أن يأتي معي..؟ إنه جد صغير بالنسبة لهذه الأمور. أليس هناك طريقة أخرى نستعيض بها عن اصطحابه..؟.

– لا أدري على وجه التحقيق يا ناليني.. ربما كانوا يرغبون في سؤاله عن ميوله..

وترددت ناليني لحظة، ثم قالت:

– أبي.. إني أرجو ألا يغضبك كلامي. لقد اعتزمت أن أسلم موهان لأبيه..

وصاح والدها قائلاً:

– ناليني.. ماذا جرى لك.. هل جننت..؟.

أما نالیني فقد راحت تبكي.. وتنتحب في حرقة.. وذعر الشيخ وأخذ يطيب خاطرها ويهدىء من روعها، وقال لها:

– نالیني.. يا عزيزتي.. ألعلك نادمة على ما حدث؟.

وقالت نالیني من خلال شهقاتها:

– أحسب ذلك..

– عال.. عال.. إذن أنت ترغبين في العودة إليه، بعد أن.. بعد أن..

– لقدكانت غلطة يا أبي. أرجو ألا تنظر إليَّ هذه النظرة، إنني مرتاعة.. مرتاعة.. ماكان ينبغي أن أوافق علىكل هذه الإجراءات.. وما كان يحق لي أن أذهب بعيداً في عنادي.. قدكان جديراً بي أن أتريث.. وأتعقل.

وسحب الوالد مقعداً في هدوء وجلس عليه.. واعتمد رأسه بيده، وساد بينهما الصمت، ولكن المرأة مازالت تنشج، والدموع تبلل خديها..

قال لها والدها:

– إن هذا الضعف يا نالیني هو الذي أطمعه فيك منذ البداية، وجرأه عليك..

ولم تجب نالیني .. بینما أخذت عیناها تشرق بالدموع وكیانها یهتز كقبضة في مهب الریح..!

وأخیراً قال لها:

– إلتفتي إليَّ یا نالیني.. إننا سنذهب الآن إلى المحكمة وسنرقب سیر القضیة.. إن علینا أن نتعرف على نیاته قبلكل شيء..

وتوقف قلیلاً، ثم استطرد قائلاً:

– إنني بالطبع لا أحب أن أوثر علیك إذا ماكنت ترغبین في العودة إلى زوجك..

– إذا لم أفعل ذلك فإلى أي مكان سأذهب؟ إلى من ألجأ..؟ إنني لا أرضى بأن أكون حملاً علیك..

وجاء الخادم وقال إن السیارة تنتظرهم عند الباب. واغتسلت نالیني مرة أخرى لتزیل أثر الدموع، وجملت وجهها بالبودرة.. وأخذت طریقها إلى الخارج وهي تحاذر أن تلتقي عیناها حتى بعیون الخدم..!.

***

وفي قاعة المحكمة.. عندما رأت نالیني زوجها وهو یسیر متجهاً نحو مقعده، أحست بقلبها یتفطر إشفاقاًعلیه.. لقد نحف عوده وزایلته

الحيوية والمرح، وذهب عنه اطمئنانه وسمات شبابه.. أين ذهب بريق عينيه وامتلأ خديه، ليحل بدلهما الشحوب واللغوب؟!.

وفي المرات القليلة، التي رمقته فيها نالييني، لم يحاول أن تتقابل العيون.. بل كان يدفن وجهه الحزين في الأوراق التي أمامه.. وبدأ القاضي ينظر القضية. وجعل كل من المحامي والمدعي يتهيأ للعمل ويتفاهم على الأوراق والأسانيد.. وظل القاضي يستمع إلى أقوال الطرفين في صبر وأناة.. وأخيراً نطق قائلاً:

– الآن تسأل المحكمة الطفل عن رغباته..

وكان موهان في تلك اللحظة يمسك بعلبة ملأى بالحلوى وقد صرف إليها اهتمامه، ويده تخرج منها القطعة بعد الأخرى.. وتضعها في فمه!.

وعاد القاضي يقول:

– التفت هنا أيها الطفل. هل تحب والدك..؟.

وأومأ موهان برأسه، وهو يولي صندوقه من اهتمامه أكثر مما يوليه لسؤال القاضي!.

– وهل تحب أن تقيم مع والدك..؟.

وأومأ الطفل برأسه مرة أخرى..

واعترض محامي الزوجة، قائلاً: إن هذا السؤال فيه إيعاز ضمني بالطريق الذي يسلكه.. وعندئذ غير القاضي من صيغة السؤال.

– إنتبه أيها الطفل اللطيف.أيهما تحب أكثر من الآخر؟ بابا أم ماما..؟.

وجاء الرد سريعاً، بعد أن ازدرد قطعة الشيكولاتة التي في فمه:

– أنا لا أحب أحداً منهما. إنهما دائماً في خصام وشجار.. أحدهما مع الآخر..!.

وصعد الدم إلى وجهها.. وجلس راميش وهو مطرق برأسه.. لقدكان هو الآخر قلقاً في جلسته:

وعاد القاضي يسأل الطفل:

– أيهما تحب أن تمكث معه يا بني؟.. مع أبيك الجالس هناك.. أم مع أمك؟

– أحب أن أمكث معكليهما..

وغيب في فمه قطعة جديدة من الشيكولاتة..

عندئذ وقف راميش وأسر إلى محاميه ببضعكلمات، ارتفع على أثرها حاجباه، لما فوجيء به..!.

وما لبث أن خاطب القاضي قائلاً:

– إن موكلي يسأل عما إذاكانت المحكمة تأذن له في أن يقول بضعكلمات للمدعى عليها.. على حدة..؟.

وسمع همس ولغط بين الصفوف على أثر هذه المفاجأة. وحرك القاضي شفتيه، ثم قال أخيراً:

– المحكمة توافق.. ولكن لابد من أن نعرف ما إذا كانت السيدة صاحبة الشأن توافق على هذا الطلب..

وقال محتمي الزوجة:

– إن موكلتي لا تمانع في ذلك.. وهي ترجو أن يكون الطفل أثناء هذه المحادثة في صحبتها..

فقال القاضي بوقار:

– لا مانع..

وانتظرت المحكمة كلها في قلق وترقب.. ولم تكن نتيجة هذا الإجراء واضحة في أذهان الحاضرين.. إن أحداً منهم لا يستطيع أن يتكهن بالنتيجة.. إن القانون يحاول في هذه اللحظة أن يجد له مخرجاً،

والعاطفة الإنسانية تحاول أن تجد لها مجالاً بين جفاف المواد الخرساء..

وبعد خمس دقائق ظهر راميش ونالييني.. ومعهما موهان ينقل عينيه في ارتياب من أحدهما إلى الآخر..

وأشار القاضي بيده ليسود النظام.. ولاذ بكرسيه العالي.

وتقدم محامي راميش نحو المنصة، ثم قال:

– موكلي يسأل المحكمة أن تسمح بسحب الدعوى. لقد رأى أن يضم إليه زوجته ويستأنفا العيش معاً في سلام.

وقال القاضي، وهو يهم بالانصراف:

– لا مانع..

وأفرغ موهان صندوق الحلوى، وجذب والده من طرف سترته، طالباً المزيد..

لم تكن لديها فكرة ترسمها للمستقبل.. ولكن ما حاجتها إلى كد الذهن إلى هذا الحد؟...